

النفسُ البشرية بين فجورها وتقواها

أخى :

إن الإلهام الفجورى للنفس متعلق كله بحياتها فى عاجل أمرها وآجله فيما يتعلق بأمور الدنيا . أما إلهام التَّقوى فإنه يتعلق بحياة النفس فى آجل أمرها أصلاً ، وفى عاجلها ضمناً ، فإذا سبق إلهام التَّقوى بعمله تضاعل إلهام الفجور واختفى . وإذا سبق إلهام الفجور بعمله تضاعل إلهام التَّقوى ، وهكذا حياة النفس بين الظلمات والنور ، ولولا فضل الله ورحمته ما نجا منها أحد .

أخى :

إن النفس سواها الله مهيأة لإلهاؤها بين فجورها وتقواها ، وخلق الدنيا وسخرها لنا ابتلاء واختباراً وكذلك خلق الشيطان وجعله من المنظرين . مهمته استغلال الإلهام الفجورى ، وإثارته للدنيا وما فيها ، وكذلك بعث الرسل عليهم السلام إلى الناس كافة . وجعل مهمتهم استغلال إلهام التقوى وإثارته للحياة الأخروية نعيماً وعذاباً . وعلى هذا أقول : إن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله واليوم الآخر إذا وضع فى نفسه كلمات الآخرة ومعانيها وصفات الله وأسمائه الحسنى ، ونظر إلى حقيقة مهمته ورسالته التى خلق لأجلها ، ونهاية أمره ، وما سيصير إليه قريباً أو بعيداً يثبت إلهام التقوى ويقويه ولكن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة .

فإذا استقر فى أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات استقرت به فى النفس كل معانيه من المعاصى والذنوب . وأخذت شياطين هذه المعانى تحوم حول قلوبنا فتصبح مُهيمنة عليها فتدخلنا مداخل السوء فى هذه الحياة ، وتقحمنا فى الورطة بعد الورطة ، وفى الهلكة بعد الهلكة . وما هذه الشياطين إلا كالذباب والبعوض والهوام لا تحوم إلا على رائحة تجذبها فإن لم تجد فى النفس ما تجتمع

عليه تفرقت ولم تجتمع . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التي أفسدت علينا رؤية الدنيا كما خلقت لكان للدنيا في أنفسنا شأن آخر أحسن وأجمل من شكلها ، ولكانت لنا أعمال أخرى أحسن وأطهر من أعمالنا . ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

أخى :

إن المؤمن الحق يذل أقصى جهده في طرد كلمة التلذذ بالحياة الدنيا من نفسه فإنه بطرده هذا قد طرد معاني الشر كلها وصلح له دينه ، وخلصت نفسه للخير ومعانيه .

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حبِّ الرضاع وإن تفضمه ينفطم
فلو أن رجلاً وضع في نفسه صورة امرأة يعشقها لصارت الدنيا كلها في نفسه كالخدع ما فيه إلا المرأة وحدها .

قال رسول الله ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت الله » أو كما قال .

واعلم أن الشياطين تنجذب إلى المعاني . والمعنى يوجد اللفظ المستقر في القلب استقرار غرض أو شهوة أو طمع . فإذا خلا القلب من هذه المعاني فقد أمن من منازعتها له وشغلها إياه . ومتى ما صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظه ما يعجبه ويعترض نظره إلى الحقائق انكشفت له هذه الحقائق فأنكشف له الملكوت . فإذا ما مر بمخاطره واحد من هذه الملذات استعلت الحقائق عليه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

أخى :

إن إلهام الفجور سابق لإلهام التقوى في النفس حيث هو خاص بالحياة الدنيا السابقة للحياة الأخرى . ولذا قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ زكى النفس وطهرها من عمل إلهام الفجور فإن النفس متى ما خلصت من

إِذَا الْفَجُورُ اسْتَوَىٰ عَلَيْهَا إلهَامُ التَّقْوَىٰ . وَلِذَلِكَ بَشَّرَهَا اللَّهُ بِالْفَلَاحِ فِي أَعْمَالِهَا .
﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ لِأَنَّ الْإلهَامَ الْفَجُورِيَّ إِذَا اسْتَوَىٰ عَلَى النَّفْسِ تَحْكُمُ فِيهَا ، وَتَسِيطِرُ عَلَيْهَا فَلَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الشَّرُّ عَمَلًا وَقَوْلًا وَفِعْلًا . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعَدَمُ الْعَمَلِ لِلْخَيْرِ هُوَ الشَّرُّ بَعِيْنُهُ حَيْثُ الْأَجَلُ مُحْدُوْدٌ . وَمَا مُضَىٰ لَا يَعُوْدُ . فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ .

وَاعْلَمْ أَخِي : أَنَّ الْخَلَاصَ مِنْ إلهَامِ الْفَجُورِ يَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا أَبَدًا مَا لَمْ نَنْظُرْ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِعَيْنِ اللَّهِ هَا : فَالدُّنْيَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَسِيْلَةً وَمَطِيَّةً . فَمَنْ رَضِيَ بِهَا وَرَكَنَ إِلَيْهَا وَجَعَلَهَا غَايَةً يَنْشُدُهَا أَوْ ادْعَى الْعَجْزَ عَنِ التَّخْلِصِ مِنْ جِهَادِ التَّعَلُّقِ بِهَا فَقَدْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِهَا وَخَسِرَهَا وَخَسِرَ الْآخِرَةَ مَعًا حَيْثُ الْمَقَامُ فِيهَا مُسْتَحِيلٌ مَا دَامَ الْمَوْتُ أَمَامَنَا وَالْأَجَلُ يَنْتَظِرُنَا . وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا كَمَا خَلَقَهَا اللَّهُ مُحَاوِلًا جِهْدَهُ التَّخْلِصَ مِنْهَا حُبًّا وَتَعَلُّقًا أَحْسَبَهُ اسْتَطَاعَ بَعْضُ الشَّيْءِ التَّخْلِصَ مِنْ إلهَامِ الْفَجُورِ الدَّاعِي إِلَيْهِ .

وَاعْلَمْ أَخِي : أَنَّ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ عَلَى حَقِيقَتِهَا لَا تَغْنِي عَنْكَ شَيْئًا مَا لَمْ تَمْضَ إِلَى مُجَاهَدَتِهَا ، وَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى مُحَارَبَتِهَا ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُصْحُوْبًا بِالْعَمَلِ لَا قِيْمَةَ لَهُ ، وَلَا اعْتِبَارَ لَهُ . وَلِلْعِلْمِ أَقْوَالٌ : إِنَّهُ لَا يَزَالُ مِنْ عُلُوْمِ النَّفْسِ مَا لَمْ نَصِلْ إِلَيْهِ . فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَلَى نَفْسِكَ بِمَا أَعْلَمَكَ اللَّهُ يَزِدُّكَ اللَّهُ عِلْمًا . وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أَوْ كَمَا قَالَ .

أَخِي :

لَا يَعْذِبُ الْإِنْسَانُ عَلَى إلهَامِ الْفَجُورِ وَوُجُوْدِهِ فِي النَّفْسِ إِذَا انْخَصَرَ أَمْرُهُ دَاخِلَ النَّفْسِ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ جِدَارَهَا . فَإِذَا انْطَلَقَ إِلَى خَارِجِ السَّوْرِ النَّفْسِيِّ وَبُعِثَتْ الْجَوَارِحُ عَلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ وَقَعَ الْعَذَابُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي حُدُوْدِ الْعَمَلِ الصَّادِرِ مِنْهَا . فَإِذَا تَابَ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ مُسْتَغْفِرًا مَحَا اللَّهُ عَنْهُ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ وَغَفَرَهَا . أَمَّا الْإلهَامُ فَلَا يَزَالُ بَاقِيًا مَا بَقِيََتِ النَّفْسُ عَلَى حَيَاتِهَا .

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْخَوَاطِرَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ إلهَامِ التَّقْوَىٰ فَإِنَّ لَهَا أَجْرًا وَثَوَابًا لِأَنَّهُ نَتِيْجَةُ تَقْوَىٰ ، وَلِأَنَّهَا مِنْ اللَّهِ أَوْ مِنَ الْمَلِكِ الْمَوْكَلِّ بِصَاحِبِهَا .

أما خواطر إلهام الفجور فإنه من عمل النفس أو من عمل الشيطان قرينها .
ولذلك لا أجر ولا إثم عليها بل محوها أجر وثواب لأن المَحْو من إلهام
التقوى . فالعبرة بالأعمال الصادرة من كِلَا الإلهامين .

وقد علمت أخى أن إلهام الفجور سباق بالعمل وفى العمل لتوفر المواد
وغزارة الأسباب حيث الحياة الدنيا بكافة معانيها ودواعيها من العوامل المثيرة لها
الداعية إليها وعليها . أما إلهام التقوى فإن مواده غَنِيَّة ، وأعماله تكاليف
والتزامات يتأخر الجزاء عليها إلى يوم القيامة ، وإن أجل الله لآت . ولذلك
تسرع النفس إلى الحياة الدنيا رغم إيمانها بالحياة الأخرى ولذا كان الزهد من
مقررات الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر . فالزهد يضعف من إلهام فجور النفس
ويقص من أجنحته ويحد من طغيانه ، ويقضى على أسبابه . فلا يجد الإلهام
الفجورى مجالا يتبخر فيه ، ولا ميدانا يصول عليه . وأحسبه ينكمش إذا
نقص المداد أو قطعت الأسباب . وللعلم أقول : إن الزهد من عمل إلهام
التقوى ومن أسلحته القاضية على الإلهام المضاد . فإن داء النفس ودواءها منها
وإليها . دأؤها فُجُورُها . ودأؤها تقواها . دأؤها هواها . ودأؤها مخالفتها . فلا
حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وللعلم أهنس فى أذن أخى بل فى قلبه وقلب كل مرید سالك فأقول : إن
للزهد المطلوب ليس فى المال فقط كما يفهم أمثالنا الضعفاء . إنما هو فى كل ما
تحب النفس وتشتهيه . وكل ما تميل إليه بمقتضى غريزتها وجبَلَّتْها . فالزهد فى المال
وعن المال فرع من فروع الزهد . وقد يكون لعلّة . ولما كان المال محبوباً لَدُنَّا عزيزاً
علينا فهل نذهب إلى تحديد الزهد فيه . كلا والله فانظر أخى إلى سبب معصية آدم
عليه السلام فإنه لم يوفق إلى الزهد فى الشجرة طمعاً فى البقاء والخلود مدفوعاً
بالحرص وحب الملكية . فالزهد فى كل شىء وعن كل شىء إلا الله تبارك وتعالى .
ومراد منك حيث العبودية لا تتحقق لله والقلب متعلق بشىء سواه . فالزهد عن
المال والزهد عن الحياة دنيياً أو دنيوياً ، والزهد عن الأهل والولد والزهد عن الرياسة
والوظيفة ، والزهد عن كل ما تحب النفس ظاهراً وباطناً ، وكل ما لم يكن من تقوى
الله فهو فُجُورٌ محض ولو كان حلالاً صِرَفاً ما لم يكن المراد به التوسُّل والتوصل
إلى محابِّ الله ومرضاته حيث عمل النفس البشرية إما بإلهام التقوى ، وإما بإلهام

فنجور ولا ثالث لهما . وكل عمل لم يكن مقصودا به وجه الله ومرضاته فهو من حظ النفس وفجورها أيّا كان نوعه ولونه وذاته وأثره . فالإنسان عمله بين الإلهامين . فالمطابق الموافق لدين الله وشريعته هو من إلهام التقوى والعكس هو من إلهام الفجور . ولذلك يحاول أهل الورع ترك بعض الحلال خشية الوقوع في الحرام الذي هو من عمل إلهام الفجور . فالحلال بين ، والحرام بين . وبينهما أمور مشتهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فالحلال داخل في إلهام التقوى ، والحرام داخل في نطاق إلهام الفجور حيث الفرق بين الإلهامين بين واضح . ولكن الخطورة في المشتبهات . ولما كان لا سلامة من إلهام الفجور نظراً لدقته لاتحاد المصدر قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وهم الذين لا يدعون مجالاً لإلهام الفجور حيث يقضون عليه أولاً بأول . يتوبون إلى الله من كل ما يصدر من النفس ولو كان من تقواها خشية هواها وحذراً من فجورها . وعلم الله لولا خشية الإشفاق عليكم لفسرت لكم هذه الآية بما هو أدق من ذلك فما أريد أن أشق عليكم وفوق كل ذى علم عليم . ولكن لا بأس أن أقول لكم . إن التوبة من الحلال ، والتطهر من الحرام وذلك لقطع اللذة على النفس . فأقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِتْمٌ وَقَدْمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فاعلم أخى : أن الفرق بين الحلال والحرام في مآتى النفس رفع العقاب ونزوله . فإذا كان المآتى والمفعول حلالاً فلا عقاب عليه ، وإذا كان حراماً فالعقاب والعذاب . ولما كان لا غنى للإنسان عن غشيان ما أحل الله فالثواب من الله على أساس الابتعاد عما حرم الله عليه .

وقد علمت أخى وسيدى أن التوبة من الحلال ليس لذنوب مرتكب أو مخالفة يعاقب الله عليها . كلاً وكلاً وألف كلا . إنما هو للتخلف عنه بعض

الوقت وللاستئناس بسوى الله ظرفاً وحالاً . فإن النفس بمقتضى طبيعتها تستأنس بما تحب . واستئناسها بشيء يشغلها عن شيء . والله يحب التوايين الرجاعين إليه من حظوظ أنفسهم وشهواتها .

فاعلم أخى : أن حقيقة التوبة ومعناها لغة وبياناً هى الرجوع إلى الله بمحابه ومرضاته والرجوع إلى الله بعد تعاطى الحلال أياً كان نوعه ولونه يجعل المفعول المتعاطى طاعة وعبادة لأن الرجوع إليه سبحانه يفيد الرجوع عن النفس واستدبارها ويفيد الاستعاذة به من شهواتها وحظوظها ، ويفيد الاعتراف بنعمه وأفضاله عليها ، ويفيد الشكر بأجلى معانيه ويفيد الاعتذار عن استغراق الوقت فى شهوة لا طائل تحتها . ويفيد معنى العبودية المحررة من استرقاق الشهوات النفسية لها . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ومعنى هذا أن ما يراه الأبرار حسنة ويأتونها هى عند المقربين سيئة يقترفونها . والمقرب هو المحبوب . ولذلك يتوب إلى الله متاباً من كل ما هو منه لعلمه بقدرة ربه واقتداره . ولإدراكه معنى التوفيق والهداية يضع نصب عينيه قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

فاعلم أخى : أنه ليس للمؤمن أن ينظر إلى الحلال الذى أحل الله بعين ما حرم عليه . كلاً وألف كلا . إنما عليه أن ينظر إلى كل شيء بعين الله - الحلال حلال ، الحرام حرام . فالتوبة من الحلال ليس معنى هذا تحريمه إنما معناه التحرر من ريقه النفس وشهواتها . فإن الشهوات كلها خلقت ابتلاء واختباراً لا غاية وهذا مقصوداً . قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ .

وقد علمت أخى : أن النفس رغم أنف صاحبها تأخذ نصيبها من الشهوات مهما كان الضغط عليها . ولذلك أمرنا بنهيها عن هواها باعتبار كل ما فيها هو من هواها . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأوضارها ، وسيئات أعمالها .

أخى :

إن من جاهد نفسه فيما أحلّ الله أحسبه يشتد ساعده عليها فيما حرّم الله عليها فالنفس إن تركتها على حالها لا تشبع من حلال ولا حرام ولو جمعت لها الدنيا كلها في صعيد واحد فالفقر صفتها ، والافتقار دأبها قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ولذلك يحب الله التّوابين ويحب المتطهرين . فالتوبة مظهر الفاقة والافتقار إليه سبحانه : فالتّوَاب هو الذى لا يستغنى عن الله بشيء ويرجع إلى ربه فى كل شيء . فقره إليه قائم ، وافتقاره عليه دائم ، يحبه الله لأنه يحاول الحياة برّبه ولرّبه شأن الملائكة الكرام رغم بشريته ورغم مناهضة العدو له يحبه لكثرة استغاثته برّبه من شرور نفسه ، ومن حبائل الشيطان وحيله - يحبه لاستيحاشه من كل ما تهوى النفس ولو كان مشروعاً . فالحمد لله والشكر له . فالتوبة من الحلال شكر عليه حيث لم يحرمه الله عليه . وهو يملك ذلك بمقتضى ربوبيته . فالحمد لله والشكر له .

واعلم أخى : أن التّوبة على أقسام - توبة من الزّلات . وتوبة من الغفلات . وتوبة من رؤية الحسنات والتّوبة التى عليها مدار حديثنا هى التّوبة من الشرك بمعنى إشراك النفس . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . بل الله فاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ فانظر أخى وتدبر ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ .

وختاماً أقول إن الله خلق النّوم راحة للبدن والروح قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ والمسبوت هو الميت والمغشى عليه . والإنسان فى حال النّوم يخرج من عالمه إلى عالم آخر يجهله ، ومن حركة إلى سكون . ومن تعب إلى راحة . والنّوم يقطع الإنسان عن الحلال والحرام . وبذا تستريح النفس ، وتستقر الروح ، فتسبح ما شاء الله لها أن تسبح ثم تعود إلى البدن بنشاط جديد واستعداد جديد حيث أخذت من الراحة نصيباً وافراً ، ولولا هذه الراحة للروح فى النّوم لما استطاعت التجانس مع البدن . فإن الروح لا بد لها من حياة محسوسة بالنسبة لها فى عالمها المغاير لعالم البدن ، فإنه من أمر الله

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ فإذا نام الإنسان تجردت الروح من تبعات البدن وتخلصت من الاسترقاق حيث لا انشغال بحلال أو حرام أو شهوة أو أى غرض آخر : روح خالصة من كل شىء سوى ربّها وخالفها قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ وقال ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ فهي في حالة النوم بأمر الله وفي أمر الله . ولذلك ترتاح في النوم وتستأنس بمناسبة وجودها مع الله وتحت أمره المباشر .

ومن هنا نعلم السر في أن أولياء الله المقربين لماذا لا يرهقهم عدم النوم وهم بشر أمثالنا لأن أرواحهم خلصت من تبعات البدن . فلا شاغل لها عن الله خالفها وبارئها . فالصحو كالنوم بالنسبة لراحة الروح واستقرارها . ولذلك يصعب عليهم النوم لما يجدون من استئناس الروح وراحتها من الاشتغال بالله ، والاستئناس به سبحانه فإن الروح إذا تعلقت بشىء فرّ منها النوم لأنها مشغولة بهذا الشىء معلقة به .

وقد علمت أخى وسيدى وفوق كل ذى علم عليم أن استئناس الروح بعالمها وهى في البدن لا يجلب النوم الذى تطلبه الروح للصعود إلى عالمها . وإلى هنا نكتفى بهذا القدر . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .